الأَديبْ و المُفَكِّرْ الرَّاحِل
رَمَضان عَبْدِ الرَّحْمن لاوَنْد
النهضـة
ومواصفاتهـا النفسية والخلقية

النهضـة

ومواصفاتها النفسيـة والخلقيــة

....

كنت ولا أزال أؤمن بأنّ مصير الفرد الواحد أو المجتمع الواحد يتقرر في ضوء المواصفات النفسية والخلقية عندهما. فالثروة بعيداً عن هذه المواصفات تكون مصدر خطر ينبوع تخريب لا مصدر أمن وينبوع بناء.

وقد لفت نظري في القرآن الكريم آية تؤكد هذا الإيمان وتفسر أسباب السقوط في مجتمع معين. يقول تبارك وتعالى في محكم تنزيله : وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا"..

فالتدمير إذاً في القانون الإلهي مرتبط بالفسوق عند المترفين من أبناء مجتمع معين أو من أبناء أسرة معينة.

وإذا كنت قد ربطت بين القانون والإرادة عند الله عز وجل فلأنّ الوحي السماوي نفسه قد أكّد على أنّ وقائع الحياة البشرية لا تتعاقب بطريقة عشوائية بل تتم في ضوء قوانين تنتظم بها العلل والمعلولات أو الأسباب والمسببات. إنّ النظرية السببية هي حقيقة مقررة في كتاب الله في مثل قوله عز وجل يحدث العباد عن سر التحولات في بنية الكون والطبيعة وحياة الناس: "سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا"، وفي آية أخرى " وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا"..

****

وطبيعي أنّني هنا لم أتبسط في النظرية السببية التي يطرحها الوحي السماوي كتفسير لوقائع الحياة الدنيا على مستوى الأكوان وأشياء الطبيعة والحياة البشرية، فلهذا الموضوع مناسبته ومكانه في غير هذه المقالة.

المهم أنّ المواصفات النفسية والخلقية هي التي يتعين بها مصير الفرد الواحد أو مصير المجتمع الواحد أيضاً. وهذه حقيقة لا تثبتها الآيات القرآنية فقط بل تدل إليها وتؤكدها تجارب التاريخ ووقائع الأيام.

****

هل يستطيع الرافض لهذه الحقيقة والممتنع عن التسليم بصحتها أن يقدم لرأيه نموذجاً من نماذج التاريخ يثبت به بطلان ما قررته في الفقرة الأولى؟ الجواب هو بالنفي طبعاً.

تم تحميل هذا الملف من مكتبة الأديب الراحل رمضـان عبدالرحمن لاوند (سـيّد المنابر) www.RamadanLawand.com
مع الاحتفاظ بكامل حقوق الطبع و الملكية الفكرية ،لمزيد من المعلومات يرجى مراسلتنا: info@RamadanLawand.com

تعالوا معاً نستعرض حوليات التاريخ البشري لنتأكد من صحة أحد الموقفين. وقبل أن نستعرض معاً بعض هذه الحوليات يجدر بي أن أعين أهم هذه المواصفات النفسية والخلقية التي هي مناط التقدم والنجاح ورقبة الجسر الوحيدة التي تنقل الفرد أو المجتمع من مرحلة التخلف والجهالة والضعف إلى مرحلة التقدم والمعرفة والقوة. أما أهم هذه المواصفات فهي :

1) الرجولة والشجاعة في المواقف.

2) الاستعداد التام لاقتحام المجاهيل.

3) التنظيم الواعي للقدرات البشرية الفكرية والأدبية وغيرها.

4) هيمنة الرؤية المستقبلية على النشاط الإنساني.

5) العدالة في التعامل.

6) الاستقامة والحرية في التفكير والقول والعمل.

7) الإيمان بمثل أعلى والتعلق بالقيم الرفيعة التي تعتبر الغرض البعيد للنشاط الإنساني.

****

والجدير بالذكر أنّ نجاح أي تجربة فردية أو مجتمعية في تاريخ البشر مرتبط ومشروط بتوفير هذه المواصفات الهامة. وعلى ذلك فإنّ نسبة تحققه مرتبطة بعدد ما يتوفر منها أي من المواصفات المذكورة من قبل.

الاسكندر المقدوني مثلاً لم يحقق قدرته على الانتشار في الأرض خلال الفترة القصيرة من عمره بفضل ما كان يتصف به من الرجولة والشجاعة في المواقف وغيرها من المواصفات المعروفة عنه وحسب بل كان يجدر في قادته وجنوده ما يجسد كل مواصفاته الخاصة أو عدداً منها.

وقد كان الشكل الذي اتخذته إمبراطوريته من بعده والتي انقسمت إلى ثلاثة أقسام رئيسة حصيلة المواصفات التي تميز بها خلفاؤه قادة وجنوداً. فقد اختفت من عقولهم واهتماماتهم الرؤية المستقبلية العالمية والأطماح التي كانت تدفع بالإسكندر إلى جعل العالم المعمور عالماً يونانياً واحداً في السياسة والثقافة والتقاليد والعادات.

****

واستمرت الهيمنة اليونانية مداً وجزراً وقوةً وضعفاً تبعاً لاستمرار المواصفات التي تميز بها الإسكندر مع قادته وجنوده في عمليات الانتشار العالمي. ويبدو أنّ هذه المواصفات ذات طاقة محدودة فهي تستنزف قليلاً أو كثيراً في المراحل التي يمر بها أصحابها. وهي ظاهرة مشتركة لكل الأمم والشعوب في فترات الحماسة والفوران ثم فترات البرود والهدوء التدريجيين. فإذا جاء الوقت الذي تهبط فيه هذه المواصفات حتى تبلغ الدرجة الدنيا كتبت لأمة

أخرى فرصة واعدة للانتشار والتوسع وتكرار التجربة التي تمثلت في أمة سابقة استقلت في صنع الحضارة البشرية أو أسهمت قليلاً أو كثيراً في صنعها.

****

هكذا ظهر العصر الروماني بعد العصر اليوناني ونبعت نابغة من الرجال المؤمنين بأقدارهم والمتصفين بالمواصفات التي ذكرت كلها أو بعضها. فنشأت الإمبراطورية الرومانية على امتداد الأجيال والقرون ثم ذهبت ريحها وهدأت حماستها وهبط مستوى الرجولة والشجاعة واختفت الروح الجماعية المستقبلية خطوة خطوة فتم استنزاف الطاقات المخزونة عند أصحابها.

أما المجتمع العربي الذي كانت الجزيرة العربية، ولا سيما المنطقة الشمالية منها، قاعدة لتحركه ومنطلقاً لانتشاره في الأرض وانتزاع المبادرة من الدولتين الفارسية والبيزنطية اللتين كانتا تسيطرن على العالم المعمور. فقد توفرت لهذا المجتمع المواصفات التي مكنته من الإنتشار والهيمنة وبالتالي من صنع حضارة بشرية عالمية على الصورة التي جاءت بها دعوة الإسلام.

وكما أنّ مواصفات هذا المجتمع هي التي حققت له فرصة الانتشار وصنع الحضارة على صورة معينة فإنّها منذ انطلقت عبر حدود الجزيرة واجهت جملة من التحديات ومارست الكثير من التجارب التي أخذت تستنزف الطاقات المخزونة عند أفراده قادة وجنوداً في مسيرة تميزت بالحركية العنيفة. وقد تكررت صور المجتمعات السابقة فيه فكان تاريخ هيمنته وسلطانه هو في الحقيقة تاريخ صمود هذه المواصفات أمام التحديات الداخلية والخارجية. وقد استمر هذا المجتمع العربي يسجل انتصاراته وانتكاساته الجزئية أو الشاملة حتى جاءت الفترة التاريخية التي فقد فيها هيبته وذهبت فيها ريحه فانتقل إلى مرحلة الدفاع عن النفس بعد أن أتمّ مرحلة الهجوم وبالتالي ما يرافق هذه المرحلة من إرادة التغيير وحماسة البطولات ورجولة المواقف.

فكانت الحروب الصليبية التي شنتها أوروبا مجتمعة عليه إعلاناً عن بداية التحول والانتقال البطيء المتدرج للقيادات الحضارية من عالم إلى عالم آخر.

****

وفشل الصليبيين في الثبات في المناطق التي استولوا عليها في حركة انتشارهم الأولى كان بسبب فقدان هؤلاء الصليبيين للمواصفات المطلوبة لانتصارهم النهائي الحاسم.

والواقع أنّ الصليبيين لم يكفوا عن القيام بمحاولات جديدة لاستعادة ما أضاعوه من الأرض ولانتزاع المبادرة من المجتمع العربي الإسلامي. فقد وضعوا لأنفسهم خطة جديدة بحثوا بها عن مصادر جديدة لقوتهم وأرزاقهم وأساليب تفكيرهم وعيشهم فكانت المغامرات البحرية الكبرى التي اكتشفوا بها طرقاً تجارية جديدة كما اكتشفوا

القارة الأميركية. وكان للدول الصليبية نصيب من الحيوية والشجاعة مكنهم من محاصرة العالم العربي والإسلامي كما كان لهم نصيب من التوفيق في التحرر من سلطان الكنيسة والتخلص من قيودها الفكرية والسياسية حتى إذا جاء القرن التاسع عشر كان العالم العربي الإسلامي في حال من الضعف مكّن أوروبا من اقتحام حدودها والتسلل إلى مواطنه كلها بصورة تدريجية. فإذا جاء القرن العشرون كان الغرب قد بسط سلطانه على العالم العربي الإسلامي كله وطرح في طريق نهضته التي بدأت تذر قرنها عقبة كأداة اشتركت دوله كلها في مساندة هذه العقبة وتزويد أصحابها بأحدث أنواع السلاح. وإذا بدولة الصهاينة ترتفع منها القواعد فوق التراب الفلسطيني العربي وتصبح دولة بوليسية طويلة الذراع تشكل تهديداً دائماً لكل تحرك عربي وسداً منيعاً أمام أي خطة تنموية عربية إسلامية.

****

هكذا يتأكد لنا أنّ ربيع الأمم وخريفها يتأثران بالمواصفات المذكورة في بداية هذه المقالة كلها أو بعضها ويتفاوت نصيبها من صنع السلام في العالم بتفاوت حظوظها من هذه المواصفات.

وإذاً فإنّ الحافز الأساسي لكل مسيرة حضارية هو الحافز النفسي الخلقي قبل كل شيء. وهذا الحافز بدوره هو الذي يمكن أصحابه من الإلتزام لسنن التقدم والنمو. وليس أدل على صحة هذا التعريف بتحول المصائر عند الأمم والشعوب من أنّ الذين يصنعون النهضات في كل منها هم الذين يتصفون بروح المغامرة والجسدية في العمل والإيمان بالنظام ويملكون رؤية مستقبلية واضحة ويحسنون الاستعانة بحصيلة المعارف البشرية في العلوم النظرية والتطبيقية، بحيث تصبح هذه الحصيلة سلاحاً يستعين به قادة الأمة الناهضة وجنودها الذين ينطلقون نحو المستقبل بإرادة مؤمنة هادفة إلى تجسيد المثل العليا والقيم الرفيعة عند أصحابها.

****

في ضوء هذا المفهوم الخاص لفلسفة النهضة يفترض في الأمة التي تدخل باب التنافس الحضاري أن تحقق ذاتها في الميدان النفسي والخلقي. فإذا لم تلتزم للمواصفات التي ذكرت في بداية هذه المقالة عجزت كل المعارف البشرية بما فيها العلوم النظرية والتطبيقية عن تحقيق التحولات الحضارية المطلوبة. ولنا في سلسلة الأحداث التي تعاقبت منذ اليوم الذي فرضت فيه دولة إسرائيل على العالم العربي الإسلامي بخاصة وعلى الأسرة الدولية بعامة ما يثبت أنّ النكسات التي سجلها العرب في كل المواقف ليست حصيلة ضعف في التسلح وقصور في الإمكانات المادية بل هي حصيلة غياب القرار السياسي الذي يجعل من العرب قوة موحدة وجبهة متراصة أمام العدوان الصهيوني.

والقرار السياسي هو المقياس الوحيد الذي يقاس به الوعي القومي بالمصلحة العامة ، والإيمان الجازم بإرادة الحياة القومية المشتركة، والاستعداد التام لتقديم المصلحة العليا على كل الاعتبارات والخلافات التي تصدر عن المصالح الاقليمية الضيقة والسياسات الاجتماعية الاقتصادية.

والواقع أنّ القضية الفلسطينية كانت ولا تزال الامتحان الأكبر الذي سلط الضوء على الثغرات السياسية التي تزلزلت وتتزلزل بها كل الأسس والقواعد التي يعكسها القرار السياسي.

****

إنّ قوة الأخلاق، والالتزام بالمصلحة القومية العليا، والاهتمام بالحرب المصيرية مع العدو، والانصراف إليها دون غيرها من الاهتمامات، وطيّ صفحات الخلافات الجانبية، والتصميم على مواجهة الجبهة الصهيونية العالمية في مغامرة محسوبة النتائج، هذه المواصفات كلها هي بعض وأهم ما يحتاج العرب إليه منذ يوم النكبة عام 1948م.

في هذه الحالة فقط كان العرب جديرين منذ البداية بتجنب المآسي التي تعرضوا ويتعرضون لها على امتداد 35 عاماً مضت وهي الفترة التي سجلت فيها أبشع النكسات وأشد الهزائم نكراً.

إنّ مصائر الأمم يصنعها عدد المدافع والطائرات ولا عدد الجيوش المعبأة للقتال بصورة أساسية بل تدعمها القرارات السياسية النابعة من أخلاق الأمة ومواصفاتها النفسية. والمقولة هذه في عصرنا العربي الراهن أصدق ما تكون لأنّ توفير هذه المواصفات النفسية والخلقية لن يضع حداً للعدوان الصهيوني فقط وهذه غاية ثانوية نسبياً بل سيحدث إنقلاباً في التوازنات الداخلية في مجموعة الشعوب العربية من ناحية كما سيحدث مثل هذا الإنقلاب في التوازنات الدولية.

والواقع أنّ إنتصارات العدو الصهيوني حتى اليوم لم تكن حصيلة مواجهات عسكرية جادة بقدر ما هي حصيلة التردد والتناقض والخلافات الجانبية في ميدان القرار السياسي العربي.

النظام لا يحقق الانتصار.. والقانون لا يصنع العدالة.. وسياسات القمع لا تخلق المواطنين الصالحين بل الذي يحقق هذا كله السلوك العفوي عند الرجال قادة وجنوداً والوعي بالالتزامات الخلقية عند هؤلاء وأولئك..